الدولة الفلسطينية، فضلاً عن ملاحظاتهم الأساسية عليه، وعلى طرح حلول أُخرى بديلة، باستثناء خالد الحروب الذي طالب بالتمسك بهذا الحل. أمّا من ناحية استراتيجيات العمل لتحقيق الأهداف فثمة إجماع على اعتبار المقاومة الشعبية، مع تفعيل دور الدبلوماسية والمقاطعة والحملات الدولية، الشكل الأجدى والأكثر ملاءمة لأوضاع الفلسطينيين.

وبصورة عامة، فإن هذا كتاب يحتاج إلى أكثر من قراءة متأنية ومتبصّرة، ولا سيما أنه جاء في ظرف يحتاج فيه الفلسطينيون إلى طرح أفكار جديدة ومغايرة للإجابة عن التساؤلات التي يطرحها واقع انسداد الأفق أمام خياراتهم الوطنية، وواقع تكلس واهتراء كياناتهم السياسية. وهو يشكل إضافة غنية وقيّمة للفكر السياسي الفلسطيني خاصة، وللمكتبة السياسية عامة، الأمر الذي يتطلب من المهتمين والباحثين والمشتغلين بحقل التفكير السياسي عدم الاكتفاء بهذه المراجعة.

ماجد كيالي
كاتب فلسطيني

جنة ونار

يحيى يخلف

القاهرة: دار الشروق، ٢٠١١. ٤٠٠ صفحة.

"جنة ونار"، عنوان رواية الكاتب الفلسطيني يحيى يخلف، يشبه الرواية إلى حد بعيد. جنة ونار هو اسم ثوب فلسطيني أسود يتميز برسومات واضحة تضج بالحياة، وهو أيضاً الخير والشر، الثواب والعقاب. الحالة ذاتها تدلف إلى خيال القارئ في أثناء مطالعته الرواية الثالثة من رباعية الروائي الفلسطيني. ثمة استغراق طويل في حياة الفلسطينيين وتقاليدهم، الأمر الذي يسرق في بعض الأحيان متعة القراءة، إذ إن الكاتب يبدو مهجوساً بالتراث مع انشغاله بالرواية. كيف لا وما عاشه الفلسطيني من تهجير ونفي وضياع يفوق أي قدرة على الخيال؟

"سماء"، بطلة الرواية، تلك الشابة المتمردة والمنفتحة التي تدرس في جامعة بيروت، وتعيش مع أبوين فلسطينيين، تكتشف بعد موت أبيها أنها متبناة. عثر عليها والدها المفترض رضيعة، ومتروكة لقدرها في دغل شمال فلسطين. هو لا يعرف شيئاً عن أسرتها أو عن أمها، فما عاشته الأسرة من مآس خلال النكبة وبعدها لم يتح للأب المتبني البحث عن أهلها. احتواها بين ذراعيه وعاد بها إلى البيت. احتفظ في صندوقه الخاص بأشيائها (ثيابها؛ دميتها القماشية؛ حجاب يقي من الحسد؛ غطاء رأس قد يكون لأمها). بعد موت والدها بالتبني، تتسلل سماء إلى الصندوق الخاص بأبيها، تتسلل إلى محاولة عابثة، لاهثة، لتحديد هويتها وتاريخها وطفولتها. تمسك

بأول الخيط. تحمل أشياءها وترحل إلى دمشق حيث تسكن بدرية، صديقة عائلتها. تترك أمها بالتبني وترحل.

ربما لا يفهم القارئ تلك القسوة المبالغ بها. هل هي إحدى طباع الشخصية الفلسطينية التي خسرت كل شيء، فلم تعد الخسارات تعنيها، أم إنها فكرة الوجود وما تحمله من تعقيدات مبهمة؟ كيف طاوعها قلبها على ترك أمها بالتبني؟ وهي تحكي في أحد الفصول عن حقد أو غضب من والديها لأنهما لم يطلعاها على السر. تترك أمها التي عاشت في حضنها سنواتها العشرين وترحل إلى دمشق كي تعيش مع بدرية في مخيم اليرموك. تطلعها على تلك الأشياء، وتحاول استدراج ذاكرتها لتعرف مصدر الأقمشة وهوية الرسوم المطرزة على طرفي الشال. سماء لا تعرف أن اسمها واسم عائلتها مكتوبان داخل الحجاب. عملية البحث تلك، تحوّل الرواية في بعض الأماكن، إلى كتلة توصيفية بطيئة، إذ يستغرق الكاتب في الحديث عن أصل الرسومات، وعن التراث والتاريخ، ويزج القارئ في تفصيلات مرهقة، كأن القارئ يُمسك بين يديه مجلة تراثية تفك رموز التطريز لتحديد المنطقة التي تنتمي إليها تلك الرسوم. يشرح لنا الكاتب كيف أن رسم السمكة يدل على أن صاحبة الشال تعيش على شاطئ بحر أو نهر، والخطوط المتعرجة هي أمواج عاتية، وقرص العسل يشير إلى منطقة غنية بالمناحل.

بدرية تشرح لسماء، والكاتب يشرح للقارئ، والرواية تخرج من حبكتها وتسرح في فضاء من الواقعية المفرطة، إلاّ إن محاولة بدرية تفسير رموز التطريز لتحديد المنطقة التي تنتمي إليها الأم لا تنجح في فك اللغز، فتقرر هي وسماء اللجوء إلى سيدات فلسطينيات يعملن في مجال حماية التراث الفلسطيني. إحدى تلك السيدات، دالية، تكشف لهما أصل الرسم المطرز على القماش. إنه مأخوذ عن ثوب اسمه "جنة ونار"، غير أن السيدة دالية تزيد الطين بلة عندما تقول إن الثوب ربما ينتمي إلى مناطق متعددة من فلسطين. لكن سماء الملتاعة لا تيأس، وتصر على زيارة دالية مرة بعد الأُخرى، لتساعدها في كشف أسرار الثوب الفلسطيني، الموروث الذي يشكل جزءاً أساسياً من سمات الهوية الوطنية الفلسطينية. ذلك الثوب يمثل روح حضارة الشعب، وتعود أصوله إلى الكنعانيين، سكان فلسطين الأصليين، الذين هاجروا من الجزيرة العربية موجة في إثر موجة على مدى مئات السنين.

لا تترك الرواية فسحة أمام القارئ للاستغراق. كلما لامسته القصة في العمق، يصحو على صناعة النسيج وصباغة الألوان والتطريز والزخارف.

يحتار القارئ ويضيع. هل يُمسك بين يديه رواية، أم إنها لمحة عن التاريخ والجغرافيا والتراث والحضارة؟

في نهاية المطاف تجد سماء ضالتها. الشيخ أحمد عودة، الذي يعيش في مخيم سبينة قرب دمشق والذي ينحدر من قرية والديها الأصليين، يعرف قصتها. يبوح باسمها الحقيقي (ليلى)، وباسم والدتها (زكية) ووالدها (سعيد). عندما يصطحبها الفدائي نجيب، زوج بدرية إلى قرية كفر كما الشركسية في فلسطين، يروي لها مضيفهم القصة بأكملها. عصابات الإرغون وشتيرن اعترضت الحافلة التي كانت تقلهم في طريق عودتهم إلى القرية. أنزلت الركاب، رجالاً ونساء، وقيّدت أياديهم وعصبت عيونهم، وساقتهم إلى مستعمرة دغانيا. قتلوا كل

الرجال وبينهم والدها. حاولت أمّها أن تهرب بها، فلحقها بعض أفراد العصابة اليهود، وأمسكوا بها. تركوا الطفلة ملقاة بين الأشواك، وعندما أفرجوا عن الأم كانت الطفلة قد اختفت. الأم أيضاً كانت تعيش المأساة نفسها. بحثت طوال عشرين عاماً عن ابنتها من دون جدوى.

وعلى الرغم من واقعيتها الشديدة، فإن الرواية تلجأ إلى الرمزية على اعتبارها رسالة أو موقفاً أو مشهداً يرنو الكاتب إلى تأريخه. وقد ذكّرتني الرواية كثيراً بفيلم "جراح القلب" للمخرج الفلسطيني جون حلقة، والذي تروي فيه الفنانة الفلسطينية رنا بشارة قصة أعمالها الفنية. تشتغل بشارة على نبتة الصبار كرمز للقضية الفلسطينية: تارة تخلل الصبار في "مطربان" كي تحكي عن صبر الفلسطيني الذي تخلل مع مرور الوقت، وتارة تغمّس النبتة الشائكة بالشوكولا السائلة لترمز إلى حلاوة العيش في فلسطين، تلك الحلاوة المسممة والناقصة والمستحيلة. في رواية "جنة ونار"، يصبح الثوب الفلسطيني، مثله مثل نبتة الصبار، رمزاً للقضية. ثمة نية واضحة لدى الكاتب لتأريخ هوية المكان وذاكرته. الفلسطيني لم يغادر بلده قط. يذوب في بلده ومكانه. يحمله معه إلى الشتات. يضع بلده وبيته ورسوماته وما ترمز إليها تلك الرسومات في حقيبته ويحملها معه أينما يذهب.

من هنا تكتسب رحلة البحث التي تخوضها سماء، رمزيتها، ومن هنا، يمكننا أن نفهم معنى أن يكون الإنسان لاجئاً فلسطينياً، أن يمضي حياته في بحث شاق ومنهك ومضن عن الهوية والمكان والرائحة والأصل والوجود. كيف يمكن لفلسطينيي الشتات أن يعيشوا خارج المكان والزمان، أن يكملوا حياتهم من دون نقطة عودة؟ ليست رحلة سماء في البحث عن أسرتها، عن أمها تحديداً، سوى رمز لما يمكن للإنسان أن يخوض من معارك لاستعادة حياته. واللافت، أن شخصيات الرواية، في معظمها، تبحث عن عودة ما؛ عودة إلى الأم، إلى الوطن، إلى الذاكرة، إلى جبال الفدائيين. حتى العصفور الذي هرب من القفص تاركاً شريكه وحيداً على الشرفة في بيت بدرية، عاد صباح اليوم التالي إلى سجنه، كأن الكاتب يقول على لسان شخصياته، إن السجن مع أحبائنا أقل تكلفة من الحرية من دونهم.

تقول سماء في القسم الأخير من الرواية، بعد أن تنجح في العثور على أمها: "أصبح لي الآن شخصيتان. شخصيتي مزدوجة، أنا لست أنا، أنا اثنتان، واحدة تنام أحياناً والأُخرى تستيقظ، ثم واحدة تستيقظ والأخرى تنام. أحياناً أفكر بعقل ليلى، وأحياناً أُخرى بعقل سماء. في الواقع، إن الطابع العام لشخصيتي هو شخصية سماء، لكنني في أعماقي أريد أن أكون ليلى.. أنا متعبة يا عمو.. أنا مضطربة.. كيف يكون المرء شخصين في وقت واحد؟" (ص ٣٢١). ذلك الضياع الذي يعيشه الفلسطيني، يرمز إليه الكاتب بالازدواجية التي تعيشها سماء أو ليلى. ما إن عثرت على أمها، على أصلها، حتى نبتت في روحها مشكلة أُخرى تتعلق بالهوية: مَن أكون؟

في المقابل، تُظهر الرواية جانباً عنيداً في شخصية الكاتب الذي لم ينجح في الانفصال عن روايته. وعدم الانفصال هذا، ربما يكون سمة عامة في أدب الثورات والنضال، وبالتالي، يصبح من الصعب أن يهرب الكاتب من شخصياته، وأن يفلت من مصيرها ويختفي وراء

سرده. عدم الانفصال هذا، كشف للقارئ هواجس الكاتب يحيى خلف ومحاولته تحدي الواقع وإن عبر الكتابة. مشهد العودة واللقاء بين سماء أو ليلى وأمها زكية العلي، جاء ليعرّي هواجس الكاتب وأحلامه. "المرأة تقترب وسماء تتقدم، وتكاد تتعثر.. المرأة تصرخ وتشهق بكاء وفرحاً، والعيون، غابة العيون تتابع المشهد.. المرأة ترتجف، وسماء ترتجف، والدم في العروق يرتجف، وعصفور الجنة يرفرف ويضرب قلبها بجناحيه.. المرأة تخرج من عمق الأسطورة، من بين النثرات، والورد، وعروق الريحان، وشجرة الحياة، ونوّار اللوز، وخيمة الباشا، ونفانف الأزهار، وأقراص العسل" (ص ٣٨٩). المرأة التي خرجت من عمق الأسطورة، هي فلسطين. ربما تكون هذه العبارة هي الخط الذي راح الكاتب ينسج عليه وثيقته الروائية "جنة ونار" كما سمّاها في مقدمة الكتاب الناقد فيصل دراج.

ديمة ونوس
كاتبة وصحافية سورية

من منشورات مؤسسة الدراسات الفلسطينية
بالاشتراك مع النادي الثقافي العربي ـ بيروت

فلسطين
وصراعنا مع الصهيونية وإسرائيل
مجموعة مقالات ومحاضرات، ١٩٥٧ – ٢٠٠٩

وليد الخالدي

٤٧٩ صفحة ١٥ دولاراً

من منشورات مؤسسة الدراسات الفلسطينية

الحكم المصري في فلسطين

١٨٣١ – ١٨٤٠

خالد محمد صافي

٤٢٣ صفحة ١٤ دولاراً